خواطر في العراق

١ مدخل البحث

كل كلمة تقال اليوم عن ديار العراق واهلهِ تبعث في الناس فكراً جديداً في تلك الربوع فتطال اليها اعناق العلماء والاقتصاديين والسياسيين ويتسابقون في مضمارها الواسع لزيادة نشاطهم واستثمار ثروتهم ومد سيطرتهم . واذ كنت قد جمعت في كناشتي بعض الفوائد والشوارد عن العراق وديارهِ ومدنهِ وسكانهِ احببتُ ان ازفّ الى القراء في هذهِ العجالة نتفاً منها فان آنست منهم ارتياحاً زدتهم مما تحويهِ هذه الكناشة

٢ من بغداد الى سدّ الهندية

بغداد حاضرة العراق وام مدنهِ راكبة ضفتي دجلة . فالجانب الشرقي منها الرصافة والجانب الغربي الكرخ . فالرصافة آهلة بسكانها زاهرة بعمرانها وابنيتها ومعاهدها فيها الدور الثوراء ومعاهد الحكومة ومعظم الجوامع واكبرها وكل البيع والكنائس ومقامات ممثلي الدول ودار المكوس (الكمرك) ويسكنها كل النصارى واليهود والتجار وارباب الصناعات . اما الكرخ فيسكنهُ نحو ٢٥٠٠٠ نسمة من مسلمي بغداد وفيهِ محطة سكة حديد بغداد الشهيرة ومحطة تراموای الكاظم وعلى هذا الجانب مسحة الخراب بادية . ويجمع بين الكرخ والرصافة جسر واحد مؤلف من سفائن

وبغداد مدينة تجارية عظيمة الحركة كانت تقدّر اعمالها التجارية قبل الحرب بخمسة ملايين ليرة سنوياً ومعظم تجارتها في اصدار الصوف او الجلود وعرق السوس والتمر وفي ادخال الاقطان والسكر والبن والمعادن والاقمشة وغيرها . ومما يزيد تجارتها اهمية علاقتها مع ايران . وفي دجلة عدد من السفن البخارية تقل البضائع والمسافرين بين بغداد والبصرة . ومن وسائط النقل السفن الشراعية التي تمخر مياه دجلة والفرات ذهاباً واياباً . وتُنقل الاحمال في البرّ على ظهور الابل والبغال والحمير

ان مياه دجلة والفرات نعمة اوجدتها الطبيعة لاحياء موات الارضين وارواء

هذه البقاع التي نزلها البشر منذ قديم العهد فاضحت مهد العمران بخصبها غير ان تلك المياه كثيراً ما تخرج عن عتيقها وتنتشر في الاراضي وتغرق المزارع والحقول والعمارة

حالة بغداد العلمية منحطة غاية الانحطاط والمدارس فيها لا تكفل بحاجيات الزمان ولنا برهان ساطع على ذلك وهو قلة حملة الاقلام والمؤلفين والكتبة فيها . هذا نظرٌ عمومي في حالة بغداد الحالية عاصمة الخلفاء العباسيين ومعهد الحضارة العربية . برحتها في عصر اليوم الاول من شهر حزيران سنة ١٩١١ ولا يتبادر الى ذهنك ايها القاريء ان الزمان الذي مرّ بين تجوالي ويومنا هذا قد احدث تغييراً يذكر في حالة البلاد فالشرق ثابت الاركان راسخ العوائد والاخلاق يصدق فيهِ قول (لامارتين) كل الصدق اذ سماهُ الشرق الثابت "L'immobile Orient" كما يصح فيهِ قول المتنبيء القائل :

خلقت الوفاً لو رجعت الى الصبا لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

وجلّ ما أُحدث في العراق بعض اعمال اوجدتها الحرب الحاضرة ومشاريع اخرى قضت بانشائها الحركات العسكرية ولا نعرف ما هو نصيب البلاد منها بعد عقد الصلح واستتباب السلم

واول اثر عثرنا عليهِ في ضواحي الكرخ قبر « الست زبيدة » وهي امرأة هارون الرشيد ولا تعلم حقيقة هذا البناء فانهُ من طراز القرن الثالث عشر وقد جدد بناؤهُ مراراً عديدة حتى فقدت رسومهُ الاصلية وكان الى جانبهِ جامع انهدم في سنة ١٧٨٠ ولم يبق منهُ باقٍ . وواصلنا سيرنا ونحن نشارف المياه المنتشرة في البراري لان تلك السنة كانت غزيرة الامطار شديدة القر ووقع برد لم يسبق لهُ مثيل في تاريخ العراق وفاض دجلة والفرات . ولما صرنا في مأمن من خطر المياه ركبنا عجلة وبعد مسير ساعة بلغنا نهر الخرّ فعبرناهُ على جسر (كبري) مصنوع من الحديد بناهُ احد المهندسين الفرنسيين سنة ١٨٩٧ ويفوق هذا الجسر جميع جسور العراق اتقاناً وهندسة

جزنا تلك الديار وكانت الغزالة تنحدر متوارية وراء اشجار النخيل تقرأ على العراق واهلهِ آيات التوديع ولكنها بعثت من انوارها شعاعاً انعكس في مرآة

القمر واصفاء السواد (١) في ليالي الليل . وبعد غروب الشمس بنصف ساعة مررنا بقرية المحمودية وهي قرية صغيرة حقيرة مؤلفة من شارع واحد وابنية من اللبن ذات طابق واحد ويجري في وسطها نهر كراه السلطان محمود ومخرجهُ من الفرات. وفيها مزارع جمَّة تنبت الغلاَّت المتباينة الانواع كالحنطة والشعير والذرة والرازيانج وغيرها. وقد اشتهرت هذه القرية بحبها القوي الناصع البياض ينقل الى بغداد على ظهر الابل . وشاهدنا في طريقنا ذوداً وصرماً من الإبل يركبها نفر من اعراب البادية وقد تردوا جلود الغزلان فكان ينقل هذا المشهد فكر المغرم بالتاريخ الى الجاهلية ويمثل غزوات العرب وفتوحاتهم في صدر الاسلام

بعد ان اقمنا بهذه القرية نحو نصف ساعة واسترحنا من وعثاء السفر استأنفنا السير وفي الساعة الثالثة وتصف مررنا بقرية الاسكندرية . وهي تشبه المحمودية كل الشبه ويمر فيها نهر باسمها ومصدرهُ من الفرات ايضاً . وقد جاء ذكر هذه القرية في كتاب معجم البلدان فنسب بناءها الى الاسكندر ذي القرنين كما نسب اليهِ بناء ثلاث عشرة مدينة سمَّاها جميعها بهذا الاسم. وشاهدنا بين المحمودية والاسكندرية بقايا ابنية سمَّاها لنا الناس خان ازاد . ويرتقي بناء هذا الخان الى عدة قرون ويقال انهُ خرب في صدر القرن السابع عشر فجدَّد بناءهُ والي بغداد عمر باشا سنة ١٦٧٨ ورجع الآن الى ما كان عليهِ من الخراب. ولفظة ازاد فارسية الاصل ومعناها الحر وربما شيَّد هذا الخان احد الفرس واطلق عليهِ اسم ازاد تبركاً بالحرّ الشهيد المدفون في سهل كربلاء ولهذا نفضل كتابة الاسم بذال مهملة مخالفين رأي من كتبها بذال معجمة . وفي الساعة الرابعة ونصف بعد الغروب وصلنا المسيَّب وهي بلدة جميلة عربية المنشإ بدوية المنظر تتوسم ابنيتها على ضفتي الفرات مشيدة بالآجر المشوي وتظلل البيوت اشجارُ النخل الباسقة . وفي المدينة وضواحيها بساتين زاهية وجنان زاهرة فيها من اشجار الفواكه ما يبهج منظرهُ ويلذ مطعمهُ . وقد اشتهرت هذه المدينة بلبنها وسمنها . وكانت يوم زرناها مقر مديرية فيها من السكان نحو ستة آلاف نفس اكثرهم من المسلمين وبينهم عدد يسير من اليهود حلوا بها للتجارة . وما وطئنا تلك الديار الاَّ وقامت في مخيلتنا منتصبة

(١) اسم للعراق

ذكرى الوقائع العربية التي جرت في صدر الاسلام كيف لا واسم المسيّب وحده احيا فينا ذكر واقعة « عين الوردة » التي ذكرها ابن الاثير في احداث سنة ٦٥ هجرية (٦٨٤ م) وكان المسيّب بن نجبة الفزاري راس بني شمخ احدى قواد تلك الحملة وباسمه سميت هذه البلدة

واهمية بلدة المسيب قائمة بموقعها المتوسط بين بغداد وكربلاء فينزلها الزوار الشيعيون طلباً للراحة . لم تستقر بنا قدم فيها حتى ركبنا سفينة ونزلنا الفرات ميمنين سدّ الهندية . وكان نور القمر ينعكس على مياه الفرات فيتكسّر ويتحوّل الى اشعة وهّاجة تظهر النهر بمظهر صحيفة نور او مرآة لجين . فكانت اجزاء ذلك المشهد البديع تتآلف لتمثل جمال الطبيعة في الشرق وتلهم الشعراء موضوعاً لشعرهم . قطعنا المسافة بين المسيب وسدّ الهندية في ساعتين ونصف وعن امد بعيد كنا نسمع هدير الماء هديراً يحاكي سقوط مياه الشلالات فتركنا السفينة وترجلنا لشدة انحدار الماء عند السدّ وخوفاً من الغرق في تلك اللجة التي افتحت مدفناً لكثيرين . ومررنا باراضٍ مملوءة من الاخاديد في ظلام حالك بعد غياب القمر وكان الليل هادئاً لا يسمع هناك الاّ هدير الماء ونباح كلاب احياء العرب . ولما صرنا على مقربة من اعمال السد سمعنا اصوات الحرس فارشدونا الى خيمة صديق لنا كان في اعمال شركة السوس الاميركية فنزلنا عنده ونحن ننتظر بفروغ صبر ان ينشق اهاب الظلام عن جبين الفجر لنشارف اعمال السدّ

٣ ري العراق وسد الهندية وكلمة عن تجارة السوس

كل امة هبطت العراق في الزمن الغابر تركت آثاراً من اهتمامها بالري ولم يزل لسان حال بعضها يقص اخبار الاول ويتبيء بسعي الكلدان والبابليين والماديين والساسانيين والفرس والعرب في احياء موات الارضين الاّ ان نشوب الحروب واحتدام الفتن تآصرا في اعفاء رسوم الانهر التي كرتها الشعوب البائدة ودرس الترع التي شقتها الدول الغابرة . ولما اعلنت المشروطية في البلاد العثمانية دعت نظارة النافعة المهندس الشهير السر ويليم ويلكوكس واودعت اليه امر الري في العراق فدرسهُ وابلى البلاء الحسن في البيان الذي اودعهُ زبدة اعماله وخلاصة

ابحاثه وجلّ المشاريع التي قال بها هي ١ : بناء خزان الهبانية لخزن مياه الفرات ٢ : خزان عقرقوف لمياه دجلة ٣ : بناء سدّ الهندية في الفرات. ٤ : بناء سد الكوت في دجلة ٥ : كري نهر يجمع بين دجلة والفرات يخترق سهول بين النهرين او الجزيرة كما يسميها اعراب البادية ٦ : كري نهروان واحياء غيره من الانهر الكبيرة والترع القديمة . ولما كانت نفقات هذه الاعمال باهظة لا تقوى عليها مالية الدولة قرّ الرأي على بناء سد الهندية وحدها لاحتياج البلاد اليها حاجة ماسة كما نبينهُ بالسطور التوالي

ان الفرات غيّر مجراهُ الاصلي وانصرف عن الحلة سنة ١٨٧٢ واخذ يصبّ في ترعة الهندية فقرّر رجال الحلّ والعقد سنة ١٨٨٥ بناء سدّ فتولى هندستهُ المهندس الفرنسي شندرفر . واقام السد المذكور في ساعد الفرات الايمن ليقلل جريانهُ في نهر الهندية ويزيدهُ انصبابًا في نهر الحلّة واستعمل في تشييده ستة عشر الف متر مكعب من عتيق الآجر المستخرج من خرائب بابل وليست هذه اول مرة هُدمت ابنية بابل لاستخراج موادها بل يذكر التاريخ نقل تلك المواد الى سبوقية وقطيفون والكوفة والى بغداد نفسها . وكان من تدابير المهندس شندرفر ان يثقل السد بمواد تلقى عليهِ سنويًا الاّ ان اهمال التدابير المقرّرة قضى على السدّ بالخراب فاضطرت الحكومة الى بناء سدّ جديد سنة ١٩٠٩ مؤلف من ٣٦ قنطرة طبقا خطة السر وليم ويلكوكس . وقد اسهب المقتطف الاغر الكلام عليهِ في المجلد الرابع والاربعين ص ٣١٦ ـ ٣٢٠ فنحيل القراء الى مراجعتهِ . وغاية ما نقول انهُ احتفل باتمام السدّ في ١٢ ديسمبر سنة ١٩١٣ . ولم يزل ينبوع خيرات ومصدر انعام يجود بها على اراضي الحلة

وخروج الفرات عن عقيقهِ لكثير الذكر في التاريخ : عرفهُ البابليون قبل قرون عديدة . ورتّقوا فتحتهُ بالسداد التي بنوها على ضفتيهِ . وجاء في معجم البلدان في مادة شهرباذ ان الفرات تحوّل عنها فاضمحلّت مزروعاتها وخربت . اه

وبعد ان شارفنا اعمال السدّ العظيمة ومشينا في عقيق الفرات الذي كان يسوى تحويل المياه اليهِ اخذ منا العجب كل مأخذ من فخامة الاعمال ولم نكن قد رأينا يومئذٍ مثل تلك المشاريع العظيمة . فرجعنا الى محل ضيافتنا فاخذ قسطاً

ذكرى الوقائع العربية التي جرت في صدر الاسلام كيف لا واسم المسيّب وحده احيا فينا ذكر واقعة « عين الوردة » التي ذكرها ابن الاثير في احداث سنة ٦٥ هجرية (٦٨٤ م) وكان المسيّب بن نجبة الفزاري راس بني شمخ احد قواد تلك الحملة وباسمه سميت هذه البلدة

واهمية بلدة المسيب قائمة بموقعها المتوسط بين بغداد وكربلاء فينزلها الزوار الشيعيون طلباً للراحة . لم تستقر بنا قدم فيها حتى ركبنا سفينة ونزلنا الفرات ميممين سدّ الهندية . وكان نور القمر ينعكس على مياه الفرات فيكسّر ويتحوّل الى اشعة وهّاجة تظهر النهر بمظهر صحيفة نور او مرآة لجين . فكانت اجزاء ذلك المشهد البديع تتآلف لتمثل جمال الطبيعة في الشرق وتلهم الشعراء موضوعاً لشعرهم . قطعنا المسافة بين المسيب وسدّ الهندية في ساعتين ونصف وعن امدٍ بعيد كنا نسمع هدير الماء هديراً يحاكي سقوط مياه الشلالات فتركنا السفينة وترجلنا لشدة انحدار الماء عند السدّ وخوفاً من الغرق في تلك اللجة التي اضحت مدفناً لكثيرين . ومررنا باراضٍ مملوءة من الاخاديد في ظلام حالك بعد غياب القمر وكان الليل هادئاً لا يسمع هناك الاّ هدير الماء ونباح كلاب احياء العرب . ولما صرنا على مقربة من اعمال السد سمعنا اصوات الحرس فارشدونا الى خيمة صديق لنا كان في اعمال شركة السوس الاميركية فنزلنا عنده ونحن ننتظر بزوغ صباح ينشق اهاب الظلام عن جبين الفجر لنشارف اعمال السد

٣ ري العراق وسد الهندية وكلمة عن تجارة السوس

كل امة هبطت العراق في الزمن الغابر تركت آثاراً من اهتمامها بالري ولم يزل لسان حال بعضها يقص اخبار الاول وينبيء بسعي الكلدان والبابليين والمادين والساسانيين والفرس والعرب في احياء موات الارضين الاّ ان نشوب الحروب واحتدام الفتن تآصرا في اعفاء رسوم الانهر التي كرّمها الشعوب البائدة ودرس الترع التي شقتها الدول الغابرة . ولما اعلنت المشروطية في البلاد العثمانية دعت تجارة النافعة المهندس الشهير السر ويليم ويلكوكس واودعت اليه امر الري في العراق فدرسهُ وابلى البلاء الحسن في البيان الذي اودعهُ زبدة اعماله وخلاصة

بحائه وجلّ المشاريع التي قال به في ١ : بناء خزان الحبانية لخزن مياه الفرات ٢ : خزان عقرقوف لمياه دجلة ٣ : بناء سدّ الهندية في الفرات ٤ : بناء سد الكوت في دجلة ٥ : كري نهر يجمع بين دجلة والفرات يخترق سهول بين النهرين او الجزيرة كما يسميها اعراب البادية ٦ : كري نهروان واحياء غيره من الانهر الكبيرة والترع القديمة . ولما كانت نفقات هذه الاعمال باهظة لا تقوى عنها مالية الدولة قرّ الرأي على بناء سد الهندية وحدها لاحتياج البلاد اليها حاجة ماسة كما نبينهُ بالسطور التوالي

ان الفرات غيّر مجراهُ الاصلي وانصرف عن الحلة سنة ١٨٧٢ واخذ يصبّ في ترعة الهندية فقرّر رجال الحلّ والعقد سنة ١٨٨٥ بناء سدّ تتولى هندستهُ المهندس الفرنسي شندرفر . واقام السد المذكور في ساعد الفرات الايمن ليقلل جريانهُ في نهر الهندية ويزيدهُ انصباباً في نهر الحلة واستعمل في تشييده ستة عشر الف متر مكعب من عتيق الآجر المستخرج من خرائب بابل وليست هذه اول مرة هُدمت ابنية بابل لاستخراج موادها بل يذكر التاريخ نقل تلك المواد الى سيوفية وقطسيفون والكوفة والى بغداد نفسها . وكان من تدابير الموصيو شندرفر ان يثقل السد بمواد تلقى عليهِ سنويًا الاّ ان اهمال التدابير المقرّرة قضى على السدّ بالخراب فاضطرت الحكومة الى بناء سدّ جديد سنة ١٩٠٩ مؤلف من ٣٦ قنطرة طبقا لخطة السر وليم ويلكوكس . وقد اسهب المقتطف الاخير الكلام عليهِ في المجلد الرابع والاربعين من ٣١٦ — ٣٢٠ فنحيل القراء الى مراجعتهِ . وغاية ما نقول انهُ احتفل باتمام السدّ في ١٢ ديسمبر سنة ١٩١٣ . ولم يزل ينبوع خيرات ومصدر النعم يجود بها على اراضي الحلة

وخروج الفرات عن عتيقهِ لكثير الذكر في التاريخ : عرفهُ البابليون قبل قرون عديدة . وترقوا فتحتهُ بالاسداد التي بنوها على ضفتيهِ . وجاء في معجم البلدان في مادة شهربان ان الفرات تحوّل عنها فاضمحلّت مزروعاتها وخربت . اه

وبعد ان شارفنا اعمال السدّ العظيمة ومشينا في عتيق الفرات الذي كان ينوى تحويل المياه اليهِ اخذ منا العجب كل مأخذ من فخامة الاعمال ولم نكن قد رأينا يومئذٍ مثل تلك المشاريع العظيمة . فرجعت الى محل ضيافتنا نأخذ قسطاً

من الراحة فشاهدنا على مقربة من خيامنا اكواماً من عروق السوس وكانت تجارة هذا الخشب رائجة في بلادنا قبل الحرب الحاضرة والامل معقود بها ستعود الى ما كانت عليه . ينبت عرق السوس في الاراضي الطرية الواقعة في شطوط دجلة والفرات وديالي والغراف وغيرها . بدأ البغاددة باستخراجه من منابته للتجارة حوالي سنة ١٨٨٠ وانتابت الايدي تلك التجارة واشتدت المزاحمة بين التجار حتى انتهى الامر سنة ١٩١٣ الى الشركة الامريكية الشهيرة « مالكاندروس وفوربس وشركائهم » فتفردت هذه الشركة بتجارته . وقد استفادت قبائل اعراب العراق من هذه التجارة فائدة عظيمة كيف لا ويعتني باستخراجه من منابته ونقله الى اماكن مخصوصة الرجل والمرأة والصبي منهم

الى مهد المدنية

لما كان اليوم التالي امتطينا دوابّ برفقة صحب لنا وسرنا ميممين بابل وكان الشوق رائدنا في هذه الرحلة لا نصدق متى نطأ ارض بابل ونقف بين اطلالها الدارسة ونستطلع عمرانها من خلايا انقاضها. تفاقم شوقنا ولكن خصب الاراضين وتعدد الجداول التي تسقي من الفرات شغلا بالنا ولاسيما وبينها بعض الجداول والانهر المذكورة في التاريخ فشاهدنا بين سدّ الهندية والحلّة نهر الهنداوية ونهر الخواص ونهر الشاه وقد كراه الشاه عباس الصفوي . ونهر المحادين وقد كراهُ الخليفة هارون الرشيد ونهر النيل وقد كراهُ الحجاج بن يوسف الثقفي وغيرها من الانهر والجداول والترع التي عفتها الايام ودرست آثارها . وفي تلك البادية قبائل شتى من العرب ينتمون الى عشائر البوسلتان وعددهم نحو ٦٠٠٠ نفس والجبور وعددهم ٧٠٠٠ واليسار وعددهم ٤٠٠٠ والخفاجة والجحيش والمعامرة . وبعد مسيرخمس ساعات بلغنا قرية العنانة وهي على ضفة الفرات اليمنى ويقابلها في ضفة اليسرى اخربة بابل ويدعوها العرب « كويرش » والعنانة وفيها بيوت الفلاحين مبنية من اللبن والطين وعند مدخل القرية شاهدت ابنةً حاملة زقاً من اللبن وكان قد تأجج صدري عطشاً فاستسقيتها لقاء ثمن ادفعهُ اليها فاجابتني بنبرة بدوية مثلت بها جود العرب وقراهم الضيف قائلة هذا لا يباع بل يهدى الى الضيف بلا ثمن . وكان لسان حالها ينشد :

حكم الضيوف بهذا الربع نافذ من حكم الخلائف آبائي على الامم
فكل ما فيه مبذول لطارقه ولا ذمام به الا على الحرم

ثم قدمت الي قدحاً فاستعرته ونفحت اختها الصغيرة بدريهمات لم تردنها باخذها الا بعد ان الححت عليها في الامر . ثم عبرنا الفرات بقفة (والقفة مركبة مستديرة الشكل تصنع من اغصان الرمان وخوص النخل وتطلى بالقار وتاريخها قديم في العراق ركبها البابليون ايام عزهم واستعملها الكلدانيون في عصر مجدهم)

٥ وقفة في بابل أم بلاد الكلدان

عند ما صرنا في الجانب الشرقي من الفرات انتصب امامنا ثلاث اشجار من الصفصاف متلفة الاغصان وارفة الظل . ينبت هذا الشجر في العراق على ضفاف دجلة والفرات وقد عرفهُ علماء النبات باسم Salix babylonica وقد استظل بفيئهِ اسرى الاسرائيليين ايام السبي وعلقوا به اعوادهم الصامتة يوم كان منظر الفرات يهيج فيهم الشوق الى الاردن . وبابل تهيج فيهم الحنين الى فلسطين وكان البابليون يكرهونهم على غناء الاناشيد الدينية المرصودة لاعيادهم المقدسة

وعلى مسافة مئة متر من تلك الاشجار دار قوراء منفردة حسنة التنسيق بناها على عدوة الفرات رجال الحفريات لكناهم ولحفظ الآثار والعاديات التي يجدونها في بابل وكان رئيس البعثة الدكتور روبرت كلدوي . ولم يكن الالمان اول من نقب اطلال بابل بل سبقتهم البعثة الفرنسية التي كان يرأسها العلامة جول اوبرت Jules Oppert وهي اول بعثة نزلت تلك الديار للتنقيب سنة ١٨٥٣ م . وعلى خمسمائة متر من ضفة الفرات خرائب بابل ودوارس معالمها. وقفت هناك صامتاً كأن على رأسي الطير منذهلاً من جلال المشهد اعجباً من قارعات الدهر وطوارق الليالي متهيباً الذكرى والعبرة . وتجاذبتني في موقفي الظنون فلم اعلم هل انا في عالم الخيال او عالم المثال فقلت اهذه بابل سيدة الممالك وربة البلاد ؟ أهذا مهد المدنية ومنشأ الحضارة ؟ اهذه معاهد الترف والبذخ وهل كانت هنا عاصمة البابليين وحاضرة الكلدان ؟ أفي هذه الارض تبوأ الملوك كراسي المجد ؟ وأقيمت فيها هياكل للآلهة انوويل وحيا ؟ هي بابل هي ام

المدن ولكن ليست بمطارف مجدها ووشي عزّها ومظهر شبابها بل باظهار ذلها باسمال خطوطها كأنها جثة هامدة قد اكل عليها الدهر وشرب . هي حاضرة الكلدان ولكن ليست بهياكلها الفخمة وصروحها الرفيعة الذرى وبراجها التي تناطح كبد السماء بل هي انقاض وأردام مدفونة تحت أكداس التراب واهضاب الرمل

تركت هذه الطواحن وشرعت اشارف آثار القوم وابحث عنها في دفائنها كأني شحيح ضاع في الترب خاتمهُ . فشاهدت صنماً عظيماً يمثل سبعاً قد هجم على عدو صريع بين مخالبهِ ولكنهُ خشن النحت مشوّه الخلق وقد وقف منتصباً على جدار من جدران القصر الشمالي الشرقي من قصور نبوكدراصر الملك . وقد حفظت الدهور هذا الجدار في حالة حسنة كأن ايدي الصناع قد انتهت من عملهِ الآن وهو مبني بالطابق المشوي . وفي ناحيةٍ من ذلك القصر شارع كان ينتهي الى ضفّ الفراتِ حيث يظلّ صرح آخر يدعوهُ النقابون المحدثون «قصر الجنوب الشرقي» وقارعة الشارع مفروشة بالقار ومبلطة بالآجر . وكان البابليون يتخذون القار في ابنيتهم عوض الملاط وكانوا يجلبونهُ من مدينة ايس وهي هيت الحالية وقد ذكر ذلك هيرودتس في رحلتهِ الى بابل . ثم خرجت من ذلك القصر وتوجهتُ الى القسم الشمالي الغربي فوجدت قصراً آخر الاّ انهُ مقوّض الاركان مضعضع الجدران لم يبقَ منهُ الاّ أكوام مبعثرة ويقال ان ذلك القصر اقدم بناء وجد في بابل ويرتقي الى عهد نبوكدراصر العظيم مؤسس مملكة بابل . وقال لي الاثريون ان تلك القصور الاربعة مشيدة في مربع مستطيل في كل جهةٍ منهُ قصرٌ . وتلك الابنية هي الحارة الملوكية . وفي الجدار القائم في الشارع نقشان منقوشان في الآجر يمثل كلٌّ منهما حيواناً من حيوانات اساطير الاولين . وانهيت لطوافي بزيارة قصر الجنوب الغربي وهو متّصل بقصر الجنوب الشرقي بابنيةٍ فسيحة الارجاء فيها الغرف الجميلة والردهات الحسنة . وفي هذا القصر الديوان الملوكي حيث كان يتبوأ نبوكدراصر عرش الملك يحفّ بهِ وزراؤه واقطاب مملكتهِ ورجال سلطنتهِ . وقد وجد النقابون في تلك الابنية كثيراً من الخوابيء والنواويس والعاديات والتحف والاصنام والتماثيل بعضها من الآجرّ المشوي وبعضها من الصخر

الاصل وبعضها من ذهب وفضة ونحاس واغلبها دقيقة الصناعة . فشئت ان اتمثل بقول صفي الدين الحلي القائل :

تبني مناأنهم في الارض بعدهمُ والعيش ان سر ابقى بعدهُ الزُّهرا

وقد نقلت هذه الآثار الجميلة الى دور التحف في الاستانة وفي اوربا اما انا فاعربت غير مرة عن رغبتي في تأسيس معهد في بغداد لصيانة آثار بابل وآشور والمدائن وبينت ذلك في مقالة نشرتها في صدى بابل في عددها الثامن . وياليت رجال الحل والعقد يعيرونني بالاً ويحققون هذه الامنية

وكان في نيتي ان ازور اخربة برج نمرود الاَّ ان ضيق الوقت حال دون رغبتي . ولا بدَّ من كلمة اقولها عن هذا الاثر قبل ان انهي كلامي عن اخربة بابل . فقد اجمع العلماء على انهُ بقايا احد الابراج التي كان يدعوها البابليون زقرتا وكانت مؤلفة من سبع طبقات مصبوغة بالالوان المتضادة والنقوش البديعة الحسنة . كانت الطبقة الاولى مصبوغة باللون الابيض والثانية بالاسود والثالثة بالقرمزي والرابعة بالازرق والخامسة بالاحمر والسادسة كانت محلاة بالفضة والسابعة بالذهب . وكانت كل طبقة مرصودة لعبادة إله من الآلهة السبعة التي تمثل السيارات السبع وكان في قمة الطبقة السابعة تمثال من الذهب الابريز للاله بيل علوهُ عشرون قدماً وفي جانب الزقرتا او البرج مائدة من التبر ايضاً . وكانت شمس بابل ترسل اشعتها الى تمثال الذهب فتنعكس عنهُ انوار بهية تملأ الفضاء وهجاً فيجمع بين الارض والسماء ويناجي بهِ عالمُ الفناء عالمَ البقاء وكان ذلك المنظر يستفز في البابليين شواعر الدين ويحيي فيهم اصول التقوى الراسخة في الشرقيين عموماً وفي الساميين منهم خصوصاً

تركت بابل مع صحبي وسقنا مطايانا الى الحلة وبعد مسير ساعة ونصف القينا رحالنا في المدينة العربية وكان النهار عند الاصيل

يتأتى البقية

بغداد يوسف غنيمه